علم الكلام الجديد وحاجة علماء الدين إليه

عز الدين جلولي *

أجدني دائما، عندما أتحدث عن موضوعات شيقة كهذه، مشدودا إليها بجاذبيتين قويتين، لكنهما جاذبيتان في اتجاهين مختلفين. أولاهما: دهشة مؤلمة جراء ما أراه من تيارات فكرية متلاطمة تعبر ضفاف حياتنا العقائدية من دون أن تَجد أمامها حواجز رقابية تحسب ما غث منها وسمن؛ وثانيهما: جاذبية لذيذة ممتعة، تدعوني إلى بذل المزيد من الجهد لدراسة هذا الوافد الجديد من هناك، والطالع الغريب عندنا هنا، وتحضني على تنبيه العقول المتدينة إلى ضرورة تكوين جبهة علمية واعية مخلصة للتصدِّي والدفاع عن حياض الأمة الثقافية، لا من موقع ردة الفعل، بل للوقوف موقف الحق الذي يتفحص بعين مجردة ما في هذا الغزو من مضار ومنافع، تماما كما يفعل الطبيب الحاذق الذي لا يألو جهدا في بذل حكمته للوقوف بين المرض وبين الإنسان، من منظور فلسفة التوازن بين الطبيعة وهذا الكائن اللذين أبدعهما الله الخالق الحكيم.

عندما يتصفح الدارس المتمعن تاريخ الفكر الإسلامي في قرونه الذهبية الأولى يخلص بنتيجة، مفادها أن المسلمين الأوائل عندما تشبعوا بقيم دينهم الحنيف دفعوا دفعا إلى الانفتاح على ثقافات عصرهم، التي كانت في عمومها ثقافة مناقضة لما يعتقدون، غير آبهين بما قد يتسرب إلى عقولهم منها، ما داموا قد ركزوا إلى كن شديد من العقيدة الصافية والتفكير السليم؛ فنظروا إلى آيات الله في الاختلاف نظر المؤمن الواثق المتفكر، الذي لا يخاف من أية فكرة ما دام عقله قد تشبع بقيم الشجاعة العلمية، ونفسه قد هدأت حيرتها.

وما كان المسلمون الأوائل أن ينفروا مما يعد في دينهم كفرا بواحًا وضلالاً مبينا فيحاربوه، بل احتضنوا كل ما طاولته أيديهم من فكر إنساني، من دون أن يكرهوا أهله على تبديله أو أن يتبدلوا، وتعاونوا مع أساطينه كيما ينقلوه من لغاته الأصلية إلى اللغة العربية، مستفيدين مما لدى هؤلاء من مؤهلات لغوية وثقافية واسعة.

يقول الأستاذ أحمد أمين مصورا هذا التمازج الثقافي البديع إبان خصوبة الحياة العقلية للمسلمين: "هذه الثقافات التي ذكرنا من فارسية وهندية، ويونانية وعربية، ومن يهودية ونصرانية وإسلام، التقت كلها في العراق في عصرنا الذي نؤرخه. ولكن كل ثقافة في أول أمرها كانت تشق لنفسها جدولا خاصا بها يمتاز بلونه وطعمه، ثم لم يلبث إلا قليلا حتى تلاقت، وكونت نهرا عظيما تصب فيه جداول مختلفة الألوان والطعوم، مختلفة العناصر"(1).

من تلك العلوم التي تفتقت عليها العقلية الإسلامية علم ارتبط بصميم عقيدة المسلمين،

ونشأ وتطور على تخومها، وكانت فيه لأهله صولات وجولات، ومعارك طاحنة بين أعلامه، وبين مباحثه أينعت معظم آراء الفرق الإسلامية التي شكلت آنذاك ولا تزال إلى الآن تشكل فسيفساء الحضارة الإسلامية، وأعني بهذا العلم "علم الكلام".

عرّف ابن خلدون هذا العلم بقوله: "هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية، بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة"(2). ولا أدري سبب تخصيص مذهب أهل السنة بالمعيارية في الحجاج والجدل من دون سواهم، رغم أن المعتزلة الأوائل كانوا في الصف الأول في الدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد الفلسفة الإغريقية. وتعريف ابن خلدون علم الكلام مقبول شريطة أن نتوسع في إشراك كل من هو قائم بالحجَّة؛ فندرج في ميدانه كل من اعتقد بأصول الإسلام الأساسية، التي يجمع سائر المسلمين قديما وحديثا عليها، ونافح عنها؛ من دون أن نغفل حق من أراد أن يتمدرس في منهج من مناهج علم الكلام على طريقة أهل السنة أو الشيعة أو الخوارج أو غيرهم.

نعم، إن عصرنا الحالي رمى إلينا بكل ما أبدع عقل الإنسان من أفكار وما أكثرها، التقى بعضه مع أفكار المسلمين واختلف بعضه الآخر اختلافا لا يزال قائما إلى الآن، في مواجهة مكشوفة وخفية، وعلماء الإسلام فيها غائبون غيابا تاما أو يكاد، على خلاف ما كان عليه الحال في العصر العباسي، الذي انبرى فيه الفطاحل من دون خوف أو وجل، فأسهموا في بناء هذا العلم ووسموه بميسمهم. في حين سيطر على العلماء اليوم التقليد والجمود، بل الضعف والنكوص؛ فملأ أولئك الأجداد الدنيا بمآثر بقت شاهدة، وترك هؤلاء الميدان فغدوا عالة على سالفيهم، يقتاتون على أبكار أفكارهم.

دواع خمسة كانت وراء توسّع المسلمين في الاعتماد على المنهج الفلسفي في بيان أسس العقيدة الإسلامية والذود عنها:

أولا: المقارنات التي قام بها علماء ديانات أخرى دخلوا الإسلام كاليهود والنصارى والزرادشت والمانويين والصابئة وغيرهم، مقارنات بين دياناتهم الأولى والدين الجديد الذي اعتنقوه، فكان في ذلك جدل وكلام أغنى الساحة الكلامية.

ثانيا: الإسلام دين حضاري، ومن مستلزمات ذلك أن تنفتح موضوعاته كلها على كافة الأسئلة المطروحة، مما يستدعي مناقشة المحكم والمتشابه من النصوص؛ فنشأ الجدل والحجاج الذي أسهم في صياغة علم الكلام.

ثالثا: ممَّن دخل في الإسلام أناس أعلنوا الشهادتين ولكنهم أضمروا الكفر، بدؤوا في التشكيك في تعاليم الدين من وحي نياتهم غير البريئة؛ فانبرى العلماء إلى الرد عليهم اعتمادا على المنطق والفلسفة؛ فتوسعت مباحث هذا العلم.

رابعا: لم يكتف العلماء المسلمون بالرد على هؤلاء الزنادقة فحسب، بل انتقلوا إلى دراسة المصادر التي يستقي منها هؤلاء أباطيلهم، فقرؤوها وترجموها وعلقوا عليها، ثُمَّ

نقضوها علاوة على ذلك. كما فعل النظام مع المنطق الأرسطي، والعلّاف مع الفلسفة اليونانية.

خامسا: تشبّع علماء الإسلام بقيم الدين الداعية إلى القراءة والتدبر والتفكر، والحاثة على الجدل وإعمال العقل؛ صونا لعقائد الإسلام من التبلبل، وقياما بالحجة على الخلق. بل إن القرآن الكريم نفسه استخدم هذا المنهج في محاكمة الأفكار والوساوس بطريقة عقلية منطقية؛ فترى المولى عز وجل يعلمنا كيف يستعمل برهان التمانع في قوله تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)، كما أبطل في آياته القول بالدور والرجحان من دون مرجّح في مثل قوله عز وجل: (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون، أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون). وما نراه أيضا في برهان القياس لوجود علة مشتركة في قوله سبحانه: (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين)، وفي مثل قوله أيضا: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثُمَّ قال له كن فيكون)(3).

تُرى هل زالت دواعي الاشتغال بعلم الكلام في هذا العصر فيزهد العلماء فيه، ويُولوا جلّ اهتمامهم بالفقه والحديث والتفسير والوعظ والإرشاد على عظم قدر ما يفعلون، من دون أن نرى لأكثرهم باعا في ساحات خطيرة وشيقة في عالم الأفكار الآخذ في الاتساع شرقا ومغربا؟

في عصر الانحطاط والتردّي عقب سقوط دولة الموحدين كما يذهب إلى ذلك المفكر الجزائري مالك بن نبي، أو في عصر النهضة، كما يحلو للقوميين العرب أن يسمّوه، عقب سقوط مصر على أيدي الإفرنجة عام 1798م، تلاقت ثقافة الأمة مع ثقافة الغرب المسيطر لقاء حادا متوترا، أذكاه الضغط السياسي الداخلي والخارجي، تمثل الأول في تردي أوضاع المسلمين خاصة خلافتهم العثمانية، وتمثل الثاني في تلهف دول الأطلسي وتهالكم لتقاسم كعكة الرجل المريض، الذي كان قد دنا أجله؛ فكان نتيجة ذلك الوطيس الحامي بروز حركات تجديدية طرحت في معظمها أسئلة مصيرية، دارت حول ماهية العمل الذي ينبغي فعله لردم الهوة بين أمة الإسلام والأمم المتحضرة المحتلة في قضية التقدم. كما دارت حولت كنه ما ينبغي فعله لصون عقيدة المسلم وحفظ هويته من التفسخ الثقافي الذي حمله الاستعمار الجديد على غير عادة المستعمرين في التاريخ.

يقول المؤرخ ألبرت حوراني عن أحد رموز الإصلاح الفكري السابقين من عصر النهضة: "يستنتج الطهطاوي 1801-1873م، أنَّ من واجب العلماء في تفسير الشريعة على ضوء الحاجات الحديثة أن عليهم أن يتعرفوا إلى العالم الحديث، وبالتالي أن يدرسوا العلوم التي ولدها العقل البشري، وهو يستشهد بسيرة أحد المشايخ الفكرية ليثبت أن دراسة الفلسفة والعلوم العقلية بقيت حية في العالم الإسلامي حتى فترة قصيرة خلت، لكنها توارت الآن، ولم يقبل الأزهر في العصر الحاضر بالعلوم الجديدة التي هي ضرورية لخير المجتمع، ويخرج من هذا إلى القول بأنَّ من واجب العلماء اليوم أن يتصالحوا مع العلوم الجديدة، وبأن من الواجب أيضا أن يكون للمتخصصين في هذه العلوم ما لعلماء الشرع من

مكانة اجتماعية"(4).

ولم يكن هذا الإحساس بأهمية هذا الانفتاح على ما عند الآخرين من بنات أفكار الشيخ رفعت رافع الطهطاوي فحسب، بل إن كوكبة من العلماء من بعده ومن قبله سكنت بهاجس العلاقة بين الدين والعلم، والعلاقة بين الدين والتقدم. وهذا ما ظهر جليا في أدبيات السيد جمال الدين الأفغاني (1839-1896م) وفي تحركاته منذ مبدئها وحتى منتهاها، فرأى أن اطلاع "المسلمين على التيارات الفكرية الحديثة ضرورة لا بد منها، بقبول ما يتفق والشريعة الإسلامية، ويفيد المسلمين في حياتهم، ورفض ما يتعارض وعقيدتهم ورفضه بالحجج العقلية والبراهين المنطقية"(5).

وقد شارك السيد جمال الدين الأفغاني بنفسه في هذا الذي دعا إليه، فألف كتابا لطيفا باللغة الفرنسية سماه: "الرد على الدهريين"، نقله إلى العربية رفيق دربه الإمام محمد عبده، وهو كتاب تولى فيه الأفغاني الرد على الطبيعيين الماديين وأتباع داروين والاشتراكيين، فهو يقول في إحدى فقرات كتابه عن هؤلاء: ((كيفما ظهر الماديون وفي أية صورة تمثلوا وبين أي قوم تجمعوا كانوا صدمة شديدة على بناء قومهم وصاعقة مجتاحة لثمار أممهم وصدعا متفاقما في بنية جيلهم، يميتون القلوب الحية بأقوالهم وينفثون السم في الأرواح بآرائهم، ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم، فما رزئت بهم أمة ولا مني بشرهم جيل إلا انتكث فتله وسقط عرشه وبددت آحاد الأمة وفقدت قوام وجودها" (6).

أما طروحات الشيخ محمد عبده فلم تكن بعيدة عن هذا الواجب الديني، الذي تنوء به العصبة أولو القوة، فتراه يحث علماء الدين بل يزجرهم للقيام بما ينبغي أن يقوموا به: "لا يجوز أن يقام الدين حاجزا بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات المملكة بقدر الإمكان، بل يجب أن يكون الدين باعثا لها على طلب العرفان مطالبا لها باحترام البرهان، فارضا عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديها من العالم... ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب العالمين"(7).

لقد كان هذا الرعيل الأول ومجايليه أمثال الشيخ عبدالرحمن الكواكبي (1849-1903م) حربا شعواء على التقليد والجمود، نارا على الجامدين الذين أساؤوا إلى الإسلام قبل أن يسيؤوا إلى نفوسهم. وقد ألف الكواكبي كتابين نفيسين سماهما "أم القرى" و"طبائع الاستبداد" يدعوان إلى إصلاح سياسي وآخر فكري، والكتابان يتركزان حول مطلبين جوهريين، أولهما: "وجوب بذل جهود جدية منظمة لمحاربة اتجاه الفقهاء الذين يقفون في طريق التقدم الفكري، ومكافحة الجهل المنتشر بين الجماهير؛ والثاني: أن يستعيد العرب مكانتهم اللائقة ودورهم في تقرير مستقبل الإسلام ومصيره"(8).

وإذا كان مطلب الكواكبي الأول في عصره ملحا، فقد غدا في عصرنا الحالي أكثر إلحاحا، لا لأن الاتجاه العام للفقهاء الذي ثار من أجله المجددون لا يزال على سالف عهده

فقط، بل لأنَّ التحديات اليوم أصبحت أكثر ضراوة وخطرا، لما تلبسه هذه التحديات من لبوس علمي ومنطقي خادع في كلّ ما تطرحه من مقولات.

تتسم هذه الأدبيات الجديدة بسمة الأصالة في منبتها، أي أن جلّها مصنف في مظانه العلمية التخصصية، لكنها عندما تفد إلينا مترجمة أو محمولة في عقول دعاتها الأصليين أو تلامذتهم من أبنائنا تفد وفودا مستقطعا؛ ممَّا يجعل المشتغل بها غير آبه لبيئتها المعرفية الأولى؛ فيتعامل معها جميعا بمنهج واحد، ممَّا أنتج عندنا طبقة من المثقفين عرفوا بـ"المفكرين"، وهو مصطلح عام غامض يصدق على كل من فكّر حقيقة، ولا يحمل في طياته أي صبغة تخصصية كالتي نرمي إليها. أما المشايخ والدعاة فقد رضوا لأنفسهم هذا اللقب، واشتغلوا بمقتضاه التقليدي المعروف، من دون أن يتنبهوا في المجمل إلى ضرورة أن يتصفوا بصفات أخرى لها صبغة التخصصية العلمية، كما كان يفعل العباقرة الأوائل أمثال الأشعري وواصل وابن سينا والغزالي وابن رشد وغيرهم كثير، كان من بينهم من جمع بين الفقه والكلام والطب والقضاء والتصوف والفلسفة، وكان لهم في كل هذه الميادين بصمة المتضلع الراسخ، لا يمنعهم علمهم بالدين أبدا من دراسة الفلسفة، أو أي علم آخر رأوا فيه ضرورة للأمة، دراسة عميقة كالتي يعكف عليها أرباب هذه الفنون.

إن ما تلقيه إلينا البوذية اليوم من تصورات جديدة عن الوجود والإنسان والكون والحياة، وما يسعى إلى نشره علماء من الطب البديل، وما يروج له دعاة (NLP LNP) وثقافة الاتصال والتواصل. وما في مجال النقد الأدبي لا يقل أهمية عن هذا كله، حيث الثورة الكبرى في اللسانيات والأسلوبيات والسيميوطيقا ونظريات جمالية التقبّل وتحليل الخطاب... وفي ما وراء ذلك كله من فلسفات معرفية لها من ظلال الماركسية والداروينية الشيء الكثير. ألا يتطلب ذلك كله وقفة تأمل واعتكافا قدوة بما فعله الأوائل من علماء الإسلام؟

إنه لا يخلو ميدان من ميادين الأنتروبولوجيا والابستيمولوجيا، وما عداها من علوم الدنيا المعاصرة، من إشارة أو اهتمام بموضوع يمكن تصنيفه في خانة علم الكلام الحديث، كما هو مفهومه في تعريف ابن خلدون السابق الذكر.

وفي خضم هذا الفراغ المهول بغياب علماء الدين عن هذه الميادين، توجهت فئات من الباحثين –ممَّن لا يحملون ثقافة عالية في الدين- إلى الاشتغال بهذه العلوم الجديدة، فدرسوها كما هي دون أن يُمحّصوها، على قاعدة "فاقد الشيء لا يعطيه"، فكانت النتيجة أن كان هؤلاء الدارسون على شاكلة أولئك الذين أبدعوا هذه العلوم سواء بسواء، لا يفرق بينهم فارق سوى أن هؤلاء مسلمون؛ فحملوا إلى أبناء دينهم هذه العلوم غير منخولة، فأصابت مقاتل في عقيدتنا الإسلامية.

فإلى هذه العلوم هبوا أيها المشايخ والدعاة، وإلى علوم الدين أسرعوا أيها العلماء والباحثون، ولا يلقينّ في روعكم أحد أن التخصّصية تجافي الموسوعية، وأن لكلّ علم أعلامه، ولا حاجة لهذا الذي نقوله وندعو إليه. وإنَّها لكلمة حق لم يُرَد بها ذاك، لولا أن في

الأمة من يصون البيضة ويحمي ثغورنا الثقافية المشرعة، كما كان ديدن الفقهاء والخلفاء في عصور لا يزال ألقها يأخذ بالنواصي والألباب.

****

الهوامش:

*) باحث وكاتب من الجزائر.

(1) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج1ص373، ط10، دار الكتاب العربي، بيروت، (؟).

(2) ابن خلدون: المقدمة، ج2 ص557، الدار التونسية لنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، تونس 1984م.

(3) يراجع: د. محمد سعيد رمضان البوطي: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، ص18-20، ط5، منشورات جامعة دمشق، دمشق 1412-1413هـ/ 1992-1993م.

(4) ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة (1798-1939م)،ترجمة ريم عزقول، ص85، دار نوفل، بيروت 1987م.

(5) علي المحافظة: الاتجاهات الفكرية عند لعرب في عصر النهضة (1798-1914م)، ص76، ط5، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1987م.

(6) السيد جمال الدين الأفغاني: الرد على الدهريين، ترجمة الأستاذ محمد عبده، ص32، ط4، مطبعة الجمالية، القاهرة 1333هـ.

(7) محمد عبده: رسالة التوحيد، ص141و142، نقلا عن: علي المحافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، ص84.

جورج أنطونيوس: يقظة العرب، ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور إحسان عباس، ص170و171، ط8، دار العلم للملايين، بيروت 1987م.